من تاريخ الأدب الفرنسي

بوفون وحديثه عن الأسلوب

الأستاذ أحمد أحمد بدوى

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

ولا شيء كذلك أيضا يضاد الفصاحة الحقة إلا استخدام هذه الخواطر الضعيفة والبحث عن الأفكار السطحية المنحلة التى لا صلابة فيها ، والتى تشبه أوراقا معدنية مطروقة لا تنال اللمعان إلا بفقدان الصلابة ، وكلما أفرغنا من هذه الروح الضعيفة اللامعة فى مؤلف قل نصيبه من القوة والوضوح والحرارة والأسلوب ، إلا إذا كانت هذه الروح هى الغرض من الموضوع ، ولم يكن للكاتب هدف إلا الفكاهة . إن فن الحديث عن الأشياء الصغيرة ربما كان أصعب من الحديث عن الأمور العظيمة[1] .

لا شيء أكثر مضادّة للطبيعة السليمة إلا التعب الذى يتكلف للتعبير عن أشياء عادية أو شائعة بطريقة شاذة أو مبهرجة[2]، ولا شيء ينزل الكاتب عن درجته أكثر من ذلك ؛ فضلا عن عدم الإعجاب به يلام لأنه قضى وقتاً طويلا فى تركيب مقاطع جديدة لأجل ألا يقول إلا ما يقوله كل الناس . هذا عيب النفوس المتعلمة العقيم ، فلديها كلمات كثيرة ، ولا أفكار عندها . مجال عملها إذا الكلمات ، وتتخيل أنها كونت فكرا ما دامت قد رصت جملا . وأنها قد نقت اللغة فى حين أنها قد أتلفتها بتغيير معناها . هؤلاء الكتاب ليس لهم أسلوب ، أو — إن شئت أن تقول — ليس لهم منه سوى الظلّ . إن الأسلوب يجب أن ينقش بالأفكار ، وهم لا يعرفون إلا أن يرسموا ألفاظاً .

للكتابة الجيدة إذاً يجب امتلاك ناصية الموضوع امتلاكا تاماً ، والتفكير فيه تفكيرا كافيا حتى يرى الكاتب بوضوح نظام عناصره ، ويكونها متتابعة ، ويجعل منها سلسلة متصلة فيها كل نقطة تمثل فكرة ، وعند ما يأخذ القلم يجب أن يعالج الموضوع بالتوالى مبتدئا بالنقطة الأولى من غير أن يسمح له بتركها ، أو أن يعنى بالعناصر عناية غير متساوية ، أو أن يضع عنصراً فى مكان غير مكانه المحدّد له والذى يجب أن يشغله . بهذا تبدو صراحة الأسلوب، وذلك أيضاً هو الذى يجعل منه وحدة ، وينظم سرعته ، وهو فقط ما يكفى لأن يجعل الأسلوب دقيقا بسيطا متساوياً ، واضحاً ، حياً ، متتابعاً .

إذا ضمّ إلى هذه القاعدة الأولى التى يكفل تحقيقها الموهبة — الرقة ، والذوق ، والدقة فى اختيار التعبيرات ، والعناية بألا تسمى الأشياء إلا بأكثر الأسماء عمومية[1] حاز الأسلوب نبلاً ، وإذا ضم إلى ذلك أيضاً الاحتراس من أول انفعال والاحتقار لكل ما ليس فيه سوى البريق والنفور الدائم من الإبهام والسخرية ، نال الأسلوب رصانة وجلالاً أيضاً . وأخيراً إذا كتب الإنسان كما يفكر ، وإذا كان مقتنعاً بما يريد أن يقنع به سواه ، أنتج هذا الاقتناع الذى يرتاح إليه الغير ، وصدق الأسلوب — كل آثارها ، على شريطة ألا يعبّر عن هذا الاقتناع الداخلىّ بعبارات حماسية قوية ، وأن يكون دائماً ، التحرّز أكثر من الثقة ، والتعقل أكثر من التحمس .

هكذا ، أيها السادة ، يبدو لى وأنا أقرؤكم أنكم حدثتمونى

(١) قال جريم Grimm : « من الواجب اعتقاد أن بيفون أضاف هذه الفكرة الأخيرة ليغرى بعض زملائه الجدد الذين لا يستطيعون أن يدعوا أن لهم مجدا إلا مستمداً من أنفس ضعيفة براقة . ولكن فكرته ليست حقاً ، فان فن الحديث عن الأشياء الصغيرة فن تحيل صغير ، ولا يتحدث عن العظائم إلا البقرية . إنى أفضل أن أقول شيئاً واحداً ممتازاً طول عمرى على أن أطبع اثنى عشر مجلداً فى أمور صغيرة . وإنى أتحدث عن هذه الأشياء التافهة التى تجلب الرجل شهرة ضيقة عابرة لأن هناك سواً أيضاً فى الفكاهة ، لا يستطيع الحصول عليه إلا البقرية » .

(٢) يبدو من الغريب أن بيفون يمقت بهرجة الأسلوب ، وفى الحق أنه لا يمقته إلا حين يخفى تفاهة الفكرة وضآلتها ، ولكنه يقبل حقاً — وكان هذا رأيه — أن يكون الأسلوب فخما مناسباً لعظمة الموضوع .

(١) يقصد بيفون بالعبارة العامة هذه التى لا تبرز الصفات العرضية للأشياء ، ولكن صفاتها الأساسية الدائمة . وإذا كان يوصى باستخدامها فذلك لأنه يرى أن عمومية الفكرة تكسو الكلمة نوعاً من النبل ، ولكن هذه الوصية خطرة لأن استخدام الأسماء العامة يلقى بنا فى الابهام والغموض ، ويجعلنا نضحي بالدقة المؤثرة ، وبالحياة فى سبيل جمال كاذب ، ونترك الكلمة الحقة المستخدمة إلى عبارات طويلة ، فلا يقال مثلا : الأسد ، ولكن ملك الوحوش ، ولا باريس ولكن عاصمة النور ؛ وقد هزئ باسكال Pascal من هؤلاء الذين يقنعون الطبيعة . والواجب أن نتبع رأى برويير Bruyère الذى يقول : (كل عبقرية المؤلف تنحصر فى قوة تحديده وتصويره . يجب أن نصور الحق لتكون كتابتنا طبيعية قوية رقيقة .)

وعلتموني ؛ وإن روحي التي تلقت بشراهة إلهامات الحكمة هذه رفيت في القفز والارتقاء إليكم ؛ وما أضيعها من جهود . إن القواعد ، كما قلتم أيضاً ، لن تحل محل الموهبة ، فهي إذا فقدت أصبحت القواعد غير مجدية . فالكتابة الجيدة هي التفكير الجيد والشعور الصادق والإبانة الممتازة مجتمعة معا ، هي أن يجتمع للمرء ذكاء وإحساس وذوق . وإن الأسلوب يتطلب اجتماع القوى العقلية وتمرينها . والأفكار وحدها تكون روح الأسلوب ، وتناسق الكلمات ليس إلا تابعا ، ولا يتعلق إلا بحساسية الأعضاء . ويكفي أن تكون لك أذن دقيقة نوعا ما لتتجنب تنافر الكلم ، ويكفي أن تمرنها وتكملها بقراءة الشعراء والخطباء ، لتندفع بدون وعي إلى تقليد التناسق الشعري والأسلوب الخطابي ، لكن التقليد لم يخلق شيئا ، وتلاؤم الكلمات أيضا ليس أساس الأسلوب ، ولا قوته ، وكثيراً ما يوجد في مؤلفات خالية من الأفكار[1] .

متانة الأسلوب ليست إلا ملاءمته لطبيعة الموضوع ، ولا يصح أن تنال قسراً ، بل تتولد تولداً طبيعيا من معنى الموضوع نفسه ، وترتبط غالبا باستخدام العبارات العامة التي تجذب إليها الأفكار . وإذا كان من المستطاع الارتفاع إلى أعظم الأفكار عمومية ، وإذا كان الموضوع في نفسه عظيما ، ارتفعت النغمة إلى المستوى نفسه . وإذا قدمت الموهبة ما يكفي لأن يوضح كل غرض وضوحا تاما مع احتفاظ النغمة بهذا المستوى ؛ وإذا أمكن أن نضيف جمال التلوين إلى قوة الصورة ، وفي كلمة واحدة ، إذا كان من المستطاع أن نبرز كل فكرة في صورة حية محددة تحديداً تاما ، وأن نكون من سلسلة الأفكار لوحة متسقة ، حية — لم تكن قوة الأسلوب رفيعة فحسب ، بل في غاية السمو .

هنا ، أيها السادة ، يكون التطبيق أفضل من القاعدة ، والأمثلة تفيد أكثر من النظريات ، ولكن بما أنه لا يسمح لي أن أذكر القطع السامية التي كثيراً ما أثرت في لدى قراءة مؤلفاتكم أجد نفسي مضطراً إلى الوقوف عند حد التأملات . إن المؤلفات الجيدة الكتابة[1] هي وحدها فقط التي تنتقل إلى الخلف ، وإن كمية المعارف ، وطرافة الأعمال بل وجدة المكشوفات ليست ضمانات كافية للخلود[2] . وإذا كانت الكتب التي تحويها لا تتحدث إلا عن أغراض تافهة ، أو إذا كانت مكتوبة بلا ذوق ولا سمو ولا موهبة ، فسوف تبيد ؛ لأن المعارف ، والموضوعات والمكشوفات تسرق بسهولة وتنتقل ، بل وتكتب أيضا بأيد أكثر مهارة . إن هذه الأشياء خارجة عن الرجل ؛ أما الأسلوب فالرجل نفسه[3] وإذا فالأسلوب لا يستطاع سرقته ولا نقله ولا تحريفه ؛ فإذا كان رفيعا نبيلا ساميا صار المؤلف أيضا موضعا للإعجاب في كل زمان لأنه لا شيء يبقى ويخلد سوى الحقيقة ، وإذا فالأسلوب الجميل لم يكن كذلك إلا بما يبرزه من عدد لا يفنى للحقائق ، وكل المحاسن العقلية التي به ، وكل التفصيلات التي يتكون منها حقائق بمقدار نفعها ، وقد تكون أغلى عند النفس الإنسانية من هذه الحقائق التي تستطيع أن تكون أساس الموضوع

إن السمو لا يستطيع أن يوجد إلا في الموضوعات العظيمة . والشعر والتاريخ ، والفلسفة ، لها كلها موضوع واحد عظيم هو الإنسان والطبيعة ؛ فالفلسفة تصف وتصور الطبيعة ؛ والشعر يصورها ويزخرفها ، ويصور الناس أيضا ويمجدهم ويبالغ في أوصافهم ، ويخلق الأبطال والآلهة . والتاريخ لا يصور إلا الناس

(١) فكرة عزيزة لدى بيفون ، فهو يرى أن الأسلوب يجب أن يغير نغمته تبعاً لطبيعة الموضوع ، وينبغي أن يرتفع أو يهبط إلى مستوى المواد التي يعرضها والموضوع الذي يعالجه ؛ وهكذا كان بيفون فخما عندما يكتب في التاريخ الطبيعي ، وبسيطاً مستخدماً للألفاظ الشائعة في رسائله إلى أصدقائه القرين

(١) لنفهم قيمة هذه الفكرة يجب أن نعود إلى التحديد السابق للكتابة الجيدة ، وهو : الكتابة الجيدة هي التفكير الجيد والشعور الصادق والإبانة الممتازة مجتمعة معاً .

(٢) علق على ذلك الأستاذ (رينيه تولت) بقوله : إن الأعمال والمعارف والمكشوفات ليست إلا مادة الكتاب الذي لا يأخذ شكلا إلا بالأسلوب الذي يبرز الأفكار ويثبتها .

(٣) هذه العبارة مشهورة ، وفي بعض الطبعات الأولى نجد بعض التحريف ، إذ فيها : Le style est de l'homme même أي أن الأسلوب من الرجل نفسه ، وقد يذكر المعنى في كلمات موجزة هكذا : Le style, c' est l' homme أي أن الأسلوب هو الرجل ، وقد يظن معنى تلك العبارة أن الأخلاق الشخصية للكاتب تظهر ظهوراً قويا في أسلوبه ، ومع أن هذه الفكرة صحيحة في ذاتها لا يقصد إليها بيفون ، بل يريد شيئاً آخر ، ذلك أن مادة الكتاب نفسها ليست للمؤلف وحده بل هي مشتركة بينه وبين سواه ، أما الأسلوب فقط فلا يرتبط بغير الكاتب وهو ملك له ، فمثلا مادة كتاب التاريخ الطبيعي وما فيه من الملاحظات والأوصاف ليس ملكا خاصاً لبيفون ، بل كان له مساعدون آخرون لهم نصيبهم من هذه الملاحظات والأوصاف ، ولكن الذي اختص به بيفون ، والذي له وحده هو الأسلوب الذي صاغ فيه كل هذه المعلومات .